هياكل يوكاتان

آثار حضارة قديمة في العالم الجديد

الرأسُ الداخلُ شرقاً في البحر في اميركا المتوسطة ؛ تغطيهِ انقاضُ هياكل من الحجر شيَّدها معماريون بارعون، وهي في الغالب مزينةٌ تزييناً بديعاً بنقوش ورسوم على جدرانها. فهذا الرأس المكسيكي الواقع بين خليج هندوراس وخليج المكسيك، نجدُ واطئاً من الصخر الكلسي (الجيري) لايكاد يرتفع عن مستوى سطح البحر، ولا يكسر من انبساطه إلاَّ بضع آكام لا يزيد ارتفاعها أكثر من مائتي قدم الى ثلاثمائة قدم. ولست تجد نهراً جارياً في هذا النجد ، بل أن الأمطار الغزيرة التي تهطل بين شهر مايو وشهر دسمبر تتغلغل في التربة — وسمكها أحياناً لا يزيد على بضع بوصات — الى الأغوار الكلسية الطبيعية ، التي تستعملُ في يوكاتان كما تستعمل الآبار . والتربة حيث توجد من صنف تربة المناطق التي تلي المناطق الاستوائية وهي خصبة مؤاتية.

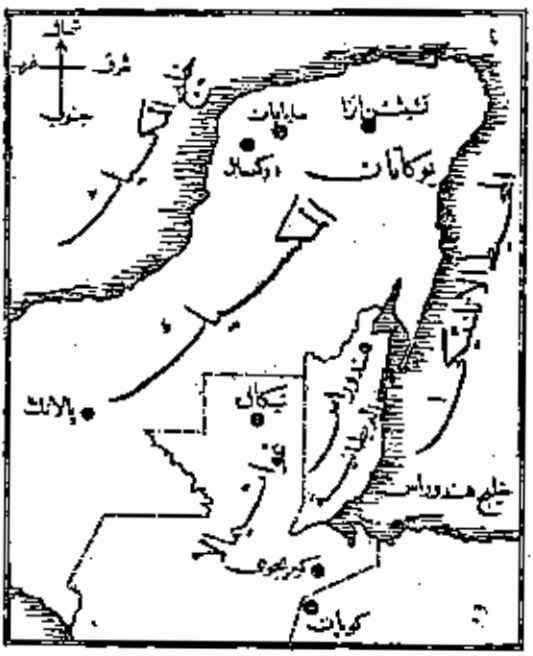

خريطة البلاد التي نشأت فيها حضارة « المايا » وازدهرت

ويغطي البلادَ ادغال من الاشجار البرية ونباتات جميلة تأوي اليها الطيور والوحوش

هذه هي البلاد التي نشأ فيها لغز من أغمض الغاز التاريخ . فالادلة لا تحصى على سمو مرتبة الشعب الذي ترك آثاره هناك، سواء من الوجهة الفنية أو العقلية . أما أصله وسبب مجيئه إلى يوكاتان ، والبواعث على مغادرته للبلاد، فأمور يحيطها الغموض من كل نواحيها. وليست الآراء التي يدلي بها الى الباحثون — والتي تبدو معقولة —

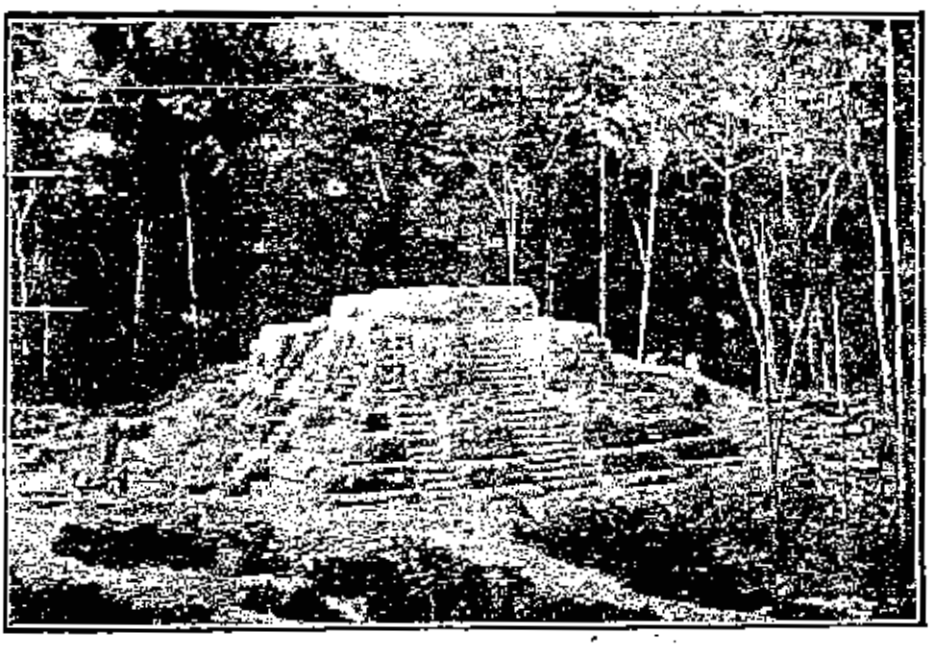

هيكل اي سُبْ في يوكاتان بجمهورية غواتيمالا

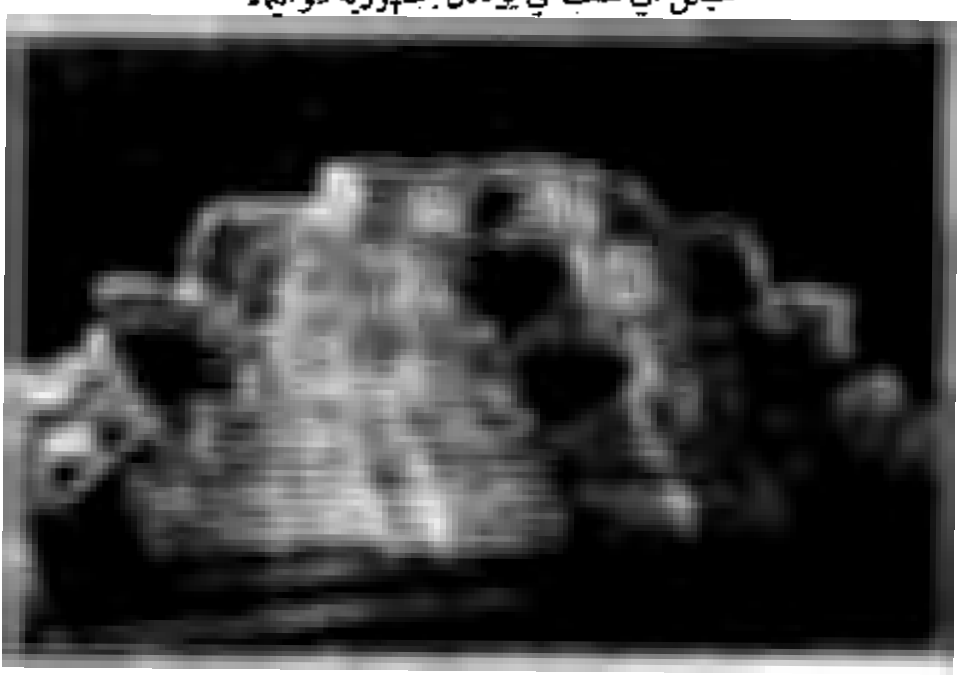

مثال تام للهيكل المرسوم اعلاه

أكثر من حدس وتخمين . بل أنك لا تجد من هذه الآراء ما يكفي لان يعلل لنا حقائق لا مراء فيها. وكيف نعلّل أن شعباً بنى اهرامات مركبة وهياكل رائعة الجمال وقطع لها الاحجار من المحاجر بأدوات حجرية ، لأنه من الثابت ان استعمال المعادن لم يكن قد اتصل بهؤلاء البنائين والمعماريين المتفوقين ؟ وكيف تفسر مقدرتهم على نقل الاحجار الضخمة ، بواسطة الرجال ، وهم لم يخترعوا العجلة ولا عرفوها ؟ كيف بنوا هذه المباني الضخمة وزينوها بالصور ، وجعلوها مخادع لآلهتهم ومارسوا فيها علومهم الفلكية الدقيقة ، ثم بعد فترة — لا تزيد على مائة سنة — قام الكهنة والبناؤون وحملوا أحمالهم وغادروا الهياكل تاركينها مأوى للوحوش تطغى عليها الحراج الكثيفة فتطمس آثارها ؟

ويرى علماء الآثار المحدثون ، ان تشييد هياكل المايا الحجرية (والمرجح ان مباني مشيدة بمواد اخرى غير الحجر سبقتها) تمّ قبل بداءة العهد المسيحي . وان بعض هياكل يوكاتان ظلّ مأهولاً كمركز للحياة الاجتماعية والدينية حتى مطلع القرن السادس عشر ب . م لما وصلت طلائع الاسبان الى تلك البلاد . ولكن ثقافة المايا كسفت بعد الفتح الاسباني ، كأنما اسدل عليها ستار كثيف ، فكأنّ ما تبقى منها والعلمية كانت مكتوبة على لوح خشبي بالطباشير فمحيت باسفنجة مبتلة . وكان الفاتحون الاسبان — الا اقلهم — لا يعنون قط باي شيء يرتبط بحضارة شعب يوكاتان او آرائه . فقد كانوا في نظر الفاتحين شعباً وثنيًا وآلهتهم اصنام . لذلك اصبحت اهراماتهم بعد تجريد الهياكل المبنية على قممها ، في نظر الاسبان ، مناجم يخرجون منها الاحجار لبناء الكنائس المسيحية

وهكذا زالت من الوجود تلك الطبقة المتنورة من شعب المايا — طبقة العلماء والامراء الكهنة . فان هؤلاء الرجال لم يكونوا زعماء سياسيين فحسب ، بل كانت صدورهم وعقولهم مستودعات للمعرفة والحكمة وفنون التدوين . وشعب المايا هو الشعب الوحيد من كل الشعوب الاصلية في اميركا — الذي ابتدع طريقة للكتابة واتقنها حتى اصبحت وسيلة دقيقة للتدوين التاريخي والفلكي . وكانت هذه المدوّنات تنقش في الصخور ، وفي الخشب احياناً ، او تمثل على الخزف ، او تصوّر على الرق او على ورق يصنع من نبات الاغابي وهو صنف من الصبار الاميركي (Agave Americana) . على ان المرسلين الاسبان عنوا بجمع كل المدونات الورقية ثم حرقوها اكواماً في ساحة مدينة « مريدا » Merida العامة . وقد بلغ من نشاط المرسلين ودقتهم في البحث عن هذه المدونات الوثنية لحرقها ، حتى لم يبق منها الآن الا ثلاث مخطوطات — على ما يعلم

ونستطيع ان نقول ان في القرون الثلاثة التي انقضت بين الفتح الاسباني للمكسيك وسقوط الملك فرديناند السابع ، ضاعت معالم ثقافة المايا بين الاهمال والاستبداد . فغابت الهياكل الفخمة المنتشرة من كوبان في جمهورية هندوراس الى غواتيمالا الى هندوراس البريطانية الى رأس يوكاتان ، في الحراج الغياء . واخذت الاشجار الضخمة تنمو في الهياكل ففتتت جذورها احجار السلالم . ولكن لغة المايا ظلت حيّة . فلك ان الطبقات الحقيرة في هذه البلدان رغم اقبالها على بعض عادات الاسبان ، ظلت محتفظة ببعض تقاليدها القديمة ، وبصراحة نسلها الى حد بعيد وخصوصاً في المقاطعات النائية . ورغم العقائد المسيحية التي بشّر بها المرسلون الاسبان ، واتخذها السكان ظاهراً ، ظلت طوائف كبيرة منهم محافظة على تقاليد المايا الدينية القديمة

فلما استقلت اميركا الاسبانية ، اندكّ السور الذي ظلّ يفصلها عن بقية العالم ، ثلاثة قرون متوالية ، فاقبل عليها الرحّالون من كل الانحاء ، وبارتها . ولم ينتصف القرن التاسع عشر ، حتى كان بعض هؤلاء الرحالين ، قد شاهدوا بعض آثار المايا في اميركا المتوسطة ويوكاتان ، فلما نشرت كتبهم ، دهش قراؤها ، الذين كان يعتقدون ، الى ذلك الحين ، ان اليونان ورومية هما مصدر الآثار القديمة النفيسة . وكان معظم الآثار القديمة يقاس بالآثار المصرية . ولا يزال حتى اليوم ، وقد اصبحت الانثولوجيا (علم الاجناس) علماً معترفاً به ، تتردد في حسبان الحضارة الاميركية القديمة حضارة مستقلة ، نشأت في تربة العالم الجديد ، بل نحاول ان نرى في الفن الاميركي آثار الفن الاسيوي او المصري ، واذا تعذّر علينا اثبات ذلك فرضنا وجود فارق ، كانت حلقة بين فني العالم القديم والعالم الجديد !

ولكن لم يُقدم احد على ترميم هذه الهياكل ، ولا على فحصها فحصاً علميًّا ، حتى مطلع العقد الثاني من القرن الماضي اذ قام بهما رجل يدعى مودسلي

كان علم الآثار الى ذلك الحين لا يزال في مهده . وكان الباحث الذي يتصدى للحفر والنقب عن الكنوز الاثرية المدفونة في التراب ، يلقى مصاعب شتى معظمها ماديٌّ . اذ فلما تجد عالماً اثريًّا على جانب كافر من الثروة يمكنه من انفاق كل النفقات اللازمة في هذا السبيل . ومن الغريب ان اثرياء الاميركيين رغم سخائهم وجودهم على العلم والتعليم ، لم يتنبهوا ، الاّ في العهد الاخير ، لاقتفاء اثر لورد الجن في اليونان ولورد كنارفن في مصر ، في الانفاق على البحث الاثري . ولكن لما اتجهت عناية الجمهور الاميركي الى الآثار القديمة على اثر ما نشر عن آثار كريت وتوت عنخ امون واور

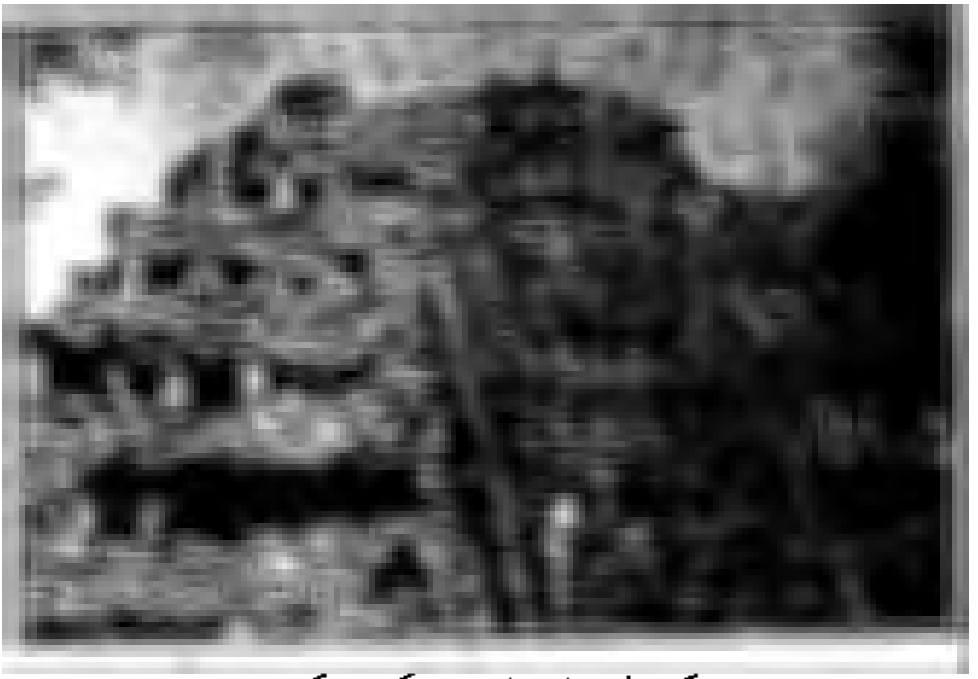

هيكل تاجين في مقاطعة فيراكروز بالمكسيك

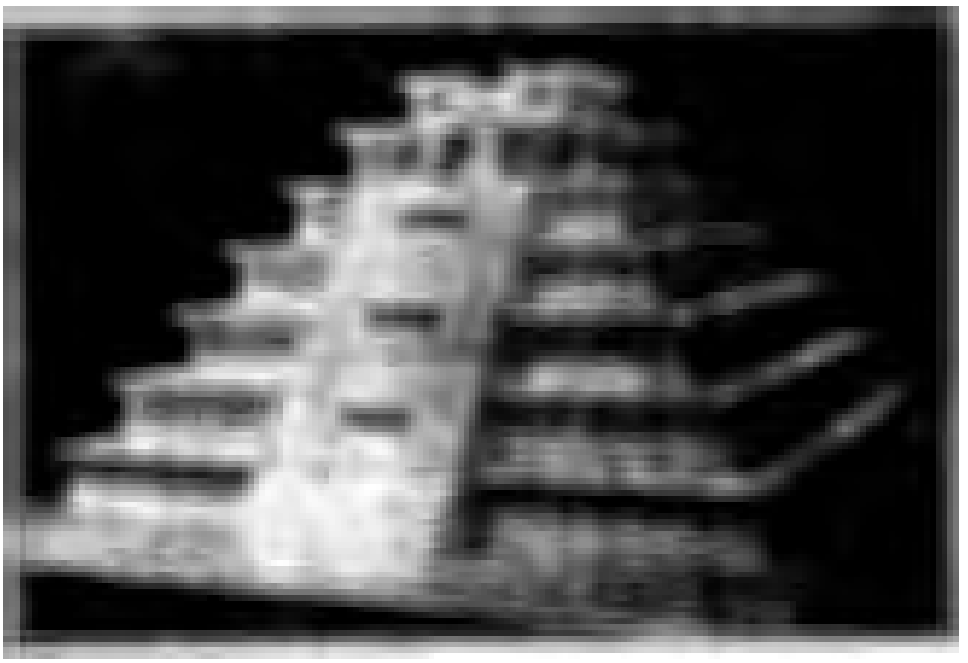

مثال تام للهيكل الذي ترى آثارهُ في الصورة العليا

مقتطف دسمبر ١٩٣١

امام صفحة ٤٠٥

الكلدانيين ، ازفت الساعة للقيام ببحث اثري منتظم في مواقع الحضارات الاميركية القديمة ، على مثال ما يجري في بلدان الشرق

وهكذا عني معهد كارنيجي في سنة ١٩٢٣ بالحصول على امتياز من حكومة المكسيك للبحث مدى عشر سنوات في هياكل تشتشن آتزا في يوكاتان

وبدأ العمل سنة ١٩٢٥ بعد اعداد فروعه العلمية اوفى إعداد ، لكي يتبع عملَ الحفر والتنقيب عملُ الترميم . ولما كان معهد كارنيجي من اغنى المعاهد العلمية ، فقد اعد بعوثاً خاصة يتولى كل بعث منها درس ناحية من نواحي تلك الحضارة القديمة فواحد يدرس لغتها ، وآخر يتولى البحث في شؤون البلاد البيولوجية وأثرها في تاريخ البلاد ، وآخر يتولى ترميم الهياكل بعد درس عمارتها وفنها درساً دقيقاً وهكذا

وقد اصدر المعهد حديثاً مجلدين يتناولان البحث في «هيكل الكهانة» فلم يدخر وسيلة ما لاتقان طبعهما وطبع صورهما طبعاً عادياً وبالالوان . ويؤخذ من هذين المجلدين انهُ لما بدأت بعثة معهد كارنيجي العمل في سنة ١٩٢٥ كانت السلالم المؤدية الى الهيكل المذكور مغطاة بالنباتات الكثيفة والشجيرات وجذور مقطوعة مما يدلّ على ان هناك من سبق الى محاولة قطع الشجيرات وتنظيف السلالم والمرجح انهُ مودزلي في سنة ١٨٨٨ وقد وجدت نقوش حجرية مهشمة ودرجات سلالم محطمة وركام من التراب والعشب تغطي نواحي الهيكل . وتعذر على رجال البعثة في البدء معرفة رسوم الهيكل ومعالمهُ . اما اليوم وقد مضى ستة اعوام على بدء العمل فيشهد الذين اتيح لهم رؤية تشتشن آتزا بان مباني الهيكل قد رممت ترميماً يشهد للقائمين بالعمل بالبراعة والاتقان . فالمباني الفخمة قائمة كما كانت في عز اهلها ، وعليها التماثيل التي تسترعي النظر ، والنقوش البارزة ، والرسوم التي تزدان بها الجدران ، وحولها الاجنحة التي كانت قد سطت عليها حتى كادت تطمس معالمها

لقد اجتمع البحث العلمي الدقيق ، والبراعة الفنية النادرة ، والصبر الذي لا ينفد في الرجال الذين قاموا بترميم « هيكل الكهانة » . اننا عادة نخشى يد المرمم ان تتمادى في التحسين فيصبح الاثر المرمم غير ما كان اصلاً . ولكن تشتشن آتزا كانت موفقة في الذين تولوا ترميم مباني هذا الهيكل . فقد عنوا عناية دقيقة في اتباع خطوط البناء القديمة . فكانت النتيجة تروق العين بجمالها وتقنع العقل بصحتها . ومن عجيب الأمور ان مهندسي المايا كانوا يعرفون كيف يبنون سلالم وغرفاً مقبّبة وشرفات وغير ذلك . ونحن نشير على قارىء هذا المقال ان يطلع على مقال سابق لنا موضوعه « حضارة المايا وتاريخها » نشرناه في مقتطف دسمبر سنة ١٩٢٩ تتمة للفائدة